

مِفْتَاحُ الدَّرَمَةِ

obeykandi.com

اقتربت مطالع القرن العشرين وأبناء القرن التاسع عشر يحسبون أنهم مقتربون من عصر خامل الى عصر يشبهه في خموله ، وكانوا قد عبروا الأعوام العشرة الأخيرة من القرن وهم يمرون بها مرور الملل وقلة الاكتراث : ركود لا يستغربونه لأنهم أطلقوا عليه كلمة « آخر القرن » Fin de Siècle كما نقول نحن في اللغة العربية « آخر زمن » ونفسر به كل فعل منتظر على غرارهِ ومن معدنه : معدن الاسفاف والابتذال ، فلا اكتراث له ولا غرابة فيه ، لأن الشئ من معدنه لا يستغرب ، كما يقال ويعاد .

وليس أدل على جهل الناس بغيرهم القريب من هذه الغفلة في نهاية القرن التاسع عشر عن ضخامة القرن العشرين بين قرون التاريخ القديم والحديث منذ عرف التاريخ ، فلم يكد هذا القرن يتتصف حتى التفت العالم من جميع أركانه وأقطاره الى هذا القرن الذى خيل اليه أنه بقية العكارة من أعقاب التاريخ الأخير ، فاذا هو عصر العصور فى حوادثه وفى مكتشفاته ومخترعاته ، وفيما يتوقع بعده من جلائل الآمال . نعم ، وجلائل الأهوال .

حربان عالميتان من عشرته الثانية الى عشرته الرابعة ، واقتحام للفضاء ، وفتح للقمقم عن مارد الطبيعة الأكبر ، وهو القمم الذى يحتويه أصغر ما فيها من ذرات لا تدركها الأبصار .

هل تعجل الانسانية الى النصر على الطبيعة أو تعجل الى الدمار على يدى الانسان بما كشفه من أسرارها ؟ وهل اقترب الانسان حقا من

الحرب التي تختتم الحروب فلا حرب بعدها ولا محاربون ، أم هو يقترب شيئاً فشيئاً من يوم النصر على الطبيعة وعلى ما في طبيعته هو من بوائق الشر والدمار ؟

وذهبت السكره وجاءت الفكرة : ذهبت نشوة الفتح والانتصار على المارد المكنون في ذرات المادة وانجلت المفاجأة عن حساب طويل لهذا الفتح المبين ، بل حساب عسير .

ماذا في وسع العلم أن يهب لنا من علانيته وسره ؟ ماذا عنده من الوعد وماذا عنده من الوفاء ؟ وماذا فيه من الخير المأمول ؟ بل ماذا في الخير المأمول من محذور يتستر وراءه النفع المنظور ؟

ان غلبة الانسان على الطبيعة سوف تؤتية الغلبة على السقم والوباء ، وسوف يزداد الناس ببركة العلم فماذا عند العلم لهؤلاء الناس من الأزواد ومن الشواغل والأعمال ؟ أعنده الكفاية لهم من القوت والمأوى أم هو مرسلهم الى عالم يتغالبون عليه ثم يلتهمون الغلب بذلك السلاح الجديد : ذلك السلاح المبيد ؟

وعاد الباحثون الى نذير « مالثوس » يدرسون وينقدونه وينقصون منه أو يزيّدون عليه . فوضح لهم أن نذير الأُمس قد أصاب في كل شيء الا فيما اعتمد عليه من معلومات وأساليب . ولم يخطئ حين أنذر بالخطر من زيادة الأحياء على الكفاية في الأرض من الطعام ، ولعله قد ذكر بعض المخاوف ونسى بعضها الذي توارى عنه فلم يبلغ في زمنه مبلغ الخطر الملموس ، وهو زيادة الآلات والأدوات على ما يلزمها من غذائها المدخر في الأرض ، وهو مناجم الوقود .

ولجأ الباحثون الى نبوءاتهم يستخبرونها عن الغد المخبوء قبل نهاية القرن العشرين ، ولكنها نبوءات تتسم بطابع القرن وسبغة العلم

والصناعة ، كأنها نبوءة المتحدث عن سيار في السماء أو في الأرض ، يعرف مداره ويعرف كم يدور .

نبوءات أقرب الى التقديرات والاحصاءات ، ليست من نبوءات الطوبى ولا من نبوءات الأحلام ولا من نبوءات العصور الذهبية ، ولكنها أشبه بأرصاء الفلك ، لو لم يكن فيها شيء من الغيب المجهول قد يخطئ فيه الحساب .

ماذا عند هذا العصر — عصر الصناعة — من وعود ؟ وماذا من هذه الوعود حقيق أن يتبعه الوفاء ؟ وماذا يحول دون وفائه بوعوده مما يقع في الحساب ، ومما يقع وراء كل حساب .

هذه هي الأسئلة التي تدور على جوابها فصول هذا الكتاب ، وارجو أن نوفق للإجابة عنها غاية ما تلهمنا ظواهر الأمور ، وغاية ما نهتدى اليه بهداية تلك الظواهر ، وهداية الأمل المصدوق .

وسنحاول أن نجيب عنه جوابين متلاحقين لا متقابلين ولا متناقضين ، يضيف أحدهما الى الآخر ، ولا يزعزحه عن مكانه ليلغيه أو يطغى عليه . فمن حيث انتهى بالقرن العشرين تطوره الصناعاتى يتبدى النظر الى ما يليه من الممكنات وما يعترض تلك الممكنات من العوائق والعراقيل ، وهذا هو الشطر الأول من الكتاب الذى نعول فيه على خبراء الصناعة حيث بلغت الصناعة غايتها واستعدت للمضى فى تقدمها الى ما بعد تلك الغاية ، فى حدود القرن العشرين وفيما يليه ، وسنتقل فى هذا القسم خلاصة كافية للمشكلة التى أحدثتها الصناعة والمشكلة التى تعالجها الصناعة ، ومدارها على تقدير سعة الأرض من المئونة ومن السكان ، وعلى ما يشتبك بذلك من قضايا السلام وقضايا السلاح ، وبخاصة فى القرن العشرين .

ونتقل بعد العرض الموجز لتقديرات الخبراء الى الشطر الثانى من الكتاب — شطر التعقيب والمراجعة فنأخذ فيه بحق العلم الذى تحراه أولئك الخبراء الثقات ، ونضيف اليه واجب العلم الذى لا يسقط عنه ولا يخليه منه الحفاظ على حقه . فمن واجب العلم أن يفرض وأن يستكشف ، وأن يجمع بين أشتات اليقين كلما وسعه أن يجمعها الى فكرة مقبولة تهدي الى مزيد من اليقين ، ومن واجبه أن يفتح أبواب الاحتمال فلا يغلق منها بابا يفضى الى المجهول ، ويربط بين الماضى والمستقبل بسبب موصول ، وعلى أضواء هذا الواجب العلمى ننظر الى مشكلات الانسانية ، والى أكبرها فى القرن العشرين مشكلة الصناعة ، لنقابل بين ماضيها وحاضرها ونحاول أن نضعها فى مكانها من تاريخ الانسان ، هل هى فلتات مبعثرة فى غياهب من القوضى وأخلاط من الطوارىء والمصادفات ، أو هى سلسلة متلاحقة تتبناها — أو تتببع المعلوم من حلقاتها — فنفهمها على اتصال بين ماضيها وحاضرها ، ثم نفهمها على اتصال بين حاضرها وما يليه من لواحق الغد المنظور ؟

والذى نفرضه — على أساس الفرض العلمى — أن المقابلة بين مشكلات الانسانية وبين أدوار الصناعة فى تاريخها تسفر عن معنى يفهم ، ولا تتيه بالذهن فى فراغ مبهم خلو من كل معنى مجرد من كل نسق . فمشكلات الانسانية جزء من معالم الطريق لم ينفصل عن فتوحها وأطوار انتصارها وارتقائها ، والصناعة — منذ وجدت الآلة البدائية — هى النعمة الأولى التى غيرت بين ملامح الحيوان الأعجم وملامح الحيوان الناطق منذ أقدم الأزمان ، وعلى هذه الصورة لا ينقطع المستقبل ولا تزال الصورة آخذة فى التمام على استقامة واطراد ، وان تخللتها الفجوات والظلال .

ودعوانا التي تؤكد لها ولا تتردد في توكيدها أن نظرة التفاؤل والرجاء
الى الغد قائمة على أسبابها التي توازن أسباب التشاؤم والقنوط ، وان
القول بعث التاريخ أصعب دليلا من القول بمعنى التاريخ ، واننا نختار
معناه — على بصيرة بينة ، دون معانيه التي يؤثرها المتشائمون القانطون ،
وبحسبنا منه أن يكون معنى واضح المدلول ، أسبابه التي تعززه أوضح
من الأسباب التي تنفيه .